محمد عفيفى مطر
والكتابة على قشرة الليل

الحياة أسئلة؟ بعضها لها إجابات وبعضها الآخر يظل بلا إجابة.. ويبدو أن الأسئلة الحائرة تزداد يوماً عن آخر.. وهذا سر الإبداع فى مجالاته المختلفة.. فلو استطاع الإنسان أن يجيب على أسئلة الحياة جميعها.. فإن الإبداع الإنساني يصل إلى منتهاه.. وتنطفئ جمرته المتوهجة..

ووقفتنا اليوم مع شاعر متعدد الأسئلة.. أضنته الحياة فصار يواجهها بالأسئلة ويكتب على قشرة الليل.. ويسقط الأقنعة ويحارب الزيف والخداع.. ويغمس أيديه فى الطمى والدم وهو يكابد هذه الحياة القاسية.

وهذا الشاعر هو محمد عفيفي مطر الذى ولد عام 1934 فى قرية (رملة الأنجب) بمحافظة المنوفية.. ورحل عن دنيانا فى 29 يونية عام 2010.

دخل عفيفي الكتاب.. ثم المدارس وحصل على دبلوم المعلمين ثم ليسانس الآداب قسم الفلسفة من جامعة عين شمس ليعمل مدرساً فى التربية والتعليم.

رأس تحرير مجلة سنابل التى كان يصدرها من محافظة كفر الشيخ (1968_1972).

أصطدم بحكم السادات وعارض اتفاقية كامب ديفيد فهرب إلى السودان ثم إلى بغداد.. وعمل هناك محرراً فى مجلة الأقلام العراقية (1977_1983).

وحينما انتهى عصر السادات عاد إلى مصر لعله يجد مناخاً صالحاً لموهبته الإبداعية.

وبدأ يشارك فى الأنشطة الأدبية والثقافية وحصل على جائزة الدولة التشجيعية والجائزة التقديرية وجائزة كفافيس وجائزة العويس الثقافية.

وفى عام 1991 اعتقلته السلطات المصرية فى ليمان طره لمعارضته السياسة التى اتخذتها مصر من حرب الخليج الثانية والتى استهدفت إخراج الجيش العراقي من الكويت.. ثم أفرج عنه وبدأ يمارس حياته بحرية كاملة..

ولعفيفي أعمال شعرية كثيرة ودراسات وأعمال للأطفال ويعد من الشعراء الذين أضافوا ملمحاً مختلفاً لخريطة الشعر المصري المعاصر.

وهذا محمد عفيفي مطر يكتب عن غربته (منفاه الاختياري) فى بغداد فيقول:

كان جرحى غربة مكتوبة فوق جبينى

علمتنى رقصة الموت الرشيق

يومها.. حط على صدرى صقر معدنى

من لغات الأرض من أجناسها

ينقر القلب..

تعرفت بعينيه على موتى الصديق

حجة الله على صمت الملايين المدانة

يومـها .. كـان كـتاب الـذاكرة

برعـم النـار .. رمـاد الحـطبة

قطعـوا رأسـى فأبصرت به يهرب

مخبـوء بأسـرار الكهانة

فابحثى عن جسدى الضائع

فـى أزمــنة الهــدم

خــذينى لـك طـفلاً

يقطع الغربة شـعراً وبكاء

وخذينى لك زوجاً وإماما

ترى هل استطاع أن يستمرئ هـذه الغربـة ويحيلهـا إلى حيـاة يـسيرة أو يتجرعها لكونها بعدا عن الوطن والأهل والأصدقاء..

إنه يتذكر مطاردة الشرطة له فى كل مكان فيقول:

أرى عـيون الشـرطة السـرية

تلمـع مـن وجـه إلـى وجـه

تسكب الوجوه فى الشوارع الخلفية

كــل قـفا وراه عـينان

تخــرقان ظلمـة النـخاع

تسـألان عـن هواجـس الهوية

obeikandl.com

لم يكن اختياراً أوحد أن يعيش فى الغربة.. لكن الأمر بين يديه لم يكن منه مفر:

قلت أمشى فى عروق الأرض أشهد

ساحة البدء المجلجل والختام

كيف استتمت نارها ورمادها

فى الخطوة الأولى

وكيف انشق من مهل الغمام

برق من الدم فاستضاءت تحته الأطلال والأجداث

وهو يصور السلطة تصويراً خاصاً نابعاً من خبرة وواقعية وقد بلغت ذروة هذا التصوير فى قوله:

إن الكلاب ملوك

والملوك دمى

والأرض تحت جيوش الروم تنجرف

فاخرج طريد بلاد كنت تحرثها

حرث العبيد..

ويدخل عفيفي السجن.. ويلقى الإهانة والتعذيب.. ويرى وجوها غير الوجوه.. وأعيناً غير الأعين.. وجدرانا غير الجدران:

شربت مرق الأحذية المنقوعة

فى الخوف والنحيب

أكـلتُ ما يخبـره الأسـفلت

فى جوفه من حنطة التعذيب

وافترشت جوارحى

حشيةً..

تملأها بالمقت..

الأوجه المقلوبة

والأعين المثقوبة.

وهذه قصيدة (هلاوس ليلة الظمأ) التى كتبها عفيفي فى معتقل طرة عام 1990 تفيض بالأسى والرؤية الفلسفية الخاصة.. فيقول:

أهذى..

أم هى الزنزانة انفتحت

على زمانين واتسعت على هول المكان

ريق وجمرة حنظل

تتشقق الشفتان:

ـ يا عبد العليم

ما للجرار ادحرجت والقلة الفخار عفرها الرماد

والملح والنهر القريب مشقق

ما للتحاريق ارتعت

بالجمر والنسج المهلهل أعظمى

وأديم هذا الليل يا عبد العليم.

تلك كانت مقدمات الاعتقال حين ترك قريته الصغيرة ـ الحرية ـ العدالة ـ الفطرة ـ البساطة ـ إلى زنزانة قبر فيها الزمان على الهول والقهر.

ثم ها هو يصف ما يحدث فى المعتقل حين تجئ نوبة الندم:

قال المخنث للمخنث

إن نوبة نومه اقتربت

فأخرس صوته بعصاك

فانفجرت برأسى الصاعقة

كان الصدى متشظيا بدم الهلاوس

آه يا عبد العليم

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

ويتذكر فى هذا الليل الصامت أهله وأفراحهم وموالدهم وكيف كان أبوه يلبس القفطان الزهري.. والشال المرفرف وفى يده العصا.. ويدخل المولد فيرحب به الجميع ويحيونه..

إنه فى هذه الزنزانة المظلمة يحيلها إلى ذكريات وأحلام مستحيلة ولأنه شاعر.. فلابد أن يتمرد على هذه الظلمة ويخلق منها النور والبهجة.. ولسان حاله يقول:

نجمة الصبح على وشك الطلوع

بين مائين..

السحاب الأصهب الأشهب

أقدام من السعى الهيولى

على وجه المياه

خطوة هائلة الوجهة

ماء كل شئ

كل شئ ليس ماء

لقد استطاع عفيفي أن يسعى فى النور والظلمة معاً.. لكنه لم يكن يتطلع سوى للحرية والعدالة فى عالم يفتقد كل شئ.. وحينما أحس بالتعب فضل أن يودعنا.. ويموت وهو واقف كالأشجار.

obeikandl.com